

تحذير الحاج من نواقض التوحيد ونواقصه

بقلم

عبد الله بن عمر الدميحي

جامعة أم القرى - مكة المكرمة

الذي يتبعه استثناء ثم إثبات يفيد قمة الحصر والقصر، أي هم مقصورون على العبادة الخالصة، وخلقوا لأجلها لا يجوز لهم الانشغال عنها بأي شاغل، وهذا هو الدين القيم الذي يعلو ولا يعلى عليه.

وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [التوبة: 31]، أي لم يؤمروا إلا بعبادة الإله الحق، فلا مألوه ولا معبود بحق إلا الله.

وهو الميثاق الذي أخذه الله تعالى على بني آدم ﴿الَّذِي أَخْبَدَ إِلَيْكُمْ يَنْبَغِيءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [٦٠] وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿[يس: 60-61].

يقول ابن القيم رحمه الله: «لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، كلمة قامت بها الأرض والسموات، وخلقته من أجلها جميع المخلوقات، وبها أرسل الله تعالى رسله، وأنزل كتبه، وشرع شرائعه، ولأجلها نصبت الموازين، ووضعت الدواوين، وقام سوق الجنة والنار، وبها انقسمت الخليقة إلى المؤمنين والكفار، والأبرار والفجار، فهي منشأ الخلق والأمر، والثواب والعقاب، وهي الحق الذي خلقت له الخليقة، وعنهما وعن حقوقها السؤال والحساب، وعليها يقع الثواب والعقاب، وعليها نصبت القبلة، وعليها أسست الملة، ولأجلها جردت سيوف الجهاد، وهي حق الله على العباد، فهي كلمة الإسلام، ومفتاح دار السلام، وعنهما يسأل الأولون والآخرون، فلا تزول قدما العبد بين يدي الله حتى يسأل عن مسألتين:

- ماذا تعبدون؟

- وماذا أجبتم المرسلين؟

فجواب الأولى بتحقيق لا إله إلا الله، معرفة وإقرارًا وعملاً.

وجواب الثانية بتحقيق: أن محمدًا رسول الله، معرفة وإقرارًا وانقيادًا

وطاعة...»^(١).

فجميع الشرائع الدينية إنما شرعت من أجل تحقيق التوحيد ونفي ما يضاهاه. فلو نظرنا إلى أركان الإسلام الخمسة على سبيل المثال، لوجدناها إنما شرعت لتحقيق التوحيد وتقرره وتؤكداه، فجاءت جميعها من أجل التوحيد، تذكيرًا، وتطبيقًا، وإقرارًا وعملاً، فالشهادتان مفتحة بالتكبير المنبئ عن طرح كل من سوى الله، واستصغار كل شيء من دون الله، ناهيك بقراءة الصلاة وأذكارها الدائرة حول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

أما الزكاة فهي قرينة الصلاة في التعبد، والإقرار لله بجميع النعم وإخراجها خالصة لوجه الله تعالى، طيبة بها النفس، براءة من عبادة الدينار والدرهم، قال تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [فصلت: 6-7].

أما الصيام الحق فهو الذي يدع الصائم فيه طعامه وشرابه وشهوته من أجل ربه ومولاه «الصوم لي، وأنا أجزى به»^(٢).

أما الحج - وهو موضوع حديثنا - فشعاره ودثاره التوحيد.

فالأمة كلها تبدأ مناسكها صارخة بالتلبية بالتوحيد ونفي الشرك، وتنقل

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (1/34).

(٢) البخاري (ح 1894)، ومسلم (2704).

بين مناسكه ومشاعره معلنة التوحيد، متبرئة مما يناقضه.

قال الإمام الشاطبي رحمه الله: «نحن نعلم أن النطق بالشهادتين، والصلاة وغيرهما من العبادات إنما شرعت للتقرب إلى الله تعالى والرجوع إليه، وإفراده بالتعظيم والإجلال، ومطابقة القلب للجوارح من الطاعة والانقياد»^(١).

ولا يتحقق التوحيد إلا بنفي ما يضاده، ولذا جاءت كلمة التوحيد دائرة بين النفي والإثبات (لا إله إلا الله) فالنفي وحده تعطيل، والإثبات وحده لا يمنع المشاركة. وهذا ما أكدته الآيات القرآنية الكثيرة ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: 36]، ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 23]، وقال عن إبراهيم إمام الحنفاء الموحدين عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٦٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَمِيعٌ﴾ [الزخرف: 26-27].

ولذلك جاءت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية المحذرة مما يناقض التوحيد، وهو الشرك بكل أنواعه، أو ما ينقص كماله الواجب من ألفاظ أو أعمال أو خطرات.

فالتوحيد «ألطف شيء وأنزهه، وأنظفه وأصفاه، فأدنى شيء يخدشه، ويدنسه، ويؤثر فيه، ولهذا تشوشه اللحظة، واللفظة، والشهوة الخفية، فإن بادر صاحبه وقلع ذلك الأثر بضده، وإلا استحکم وصار طبعًا، يتعسر عليه

(١) الموافقات (3/ 121) تحقيق مشهور آل سلمان.

قلعه» (١).

ولذا فإن أول نهي ورد في القرآن الكريم - حسب ترتيب المصحف - هو النهي عن الشرك في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 22] بعد أول أمر وهو الأمر بالتوحيد ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أُعْبِدُوا رَبَّكُمْ﴾ [البقرة: 21].

وهو أول الوصايا العشر في سورة الأنعام التي ابتدأها الله تعالى بقوله العزيز: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا...﴾ [الأنعام: 151].

قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: «من أراد أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمة فليقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ...﴾» (٢).

وجاء الوعيد عليه بقطع الطمع في مغفرة الغفور الرحيم لمن تلبس بهذا الجرم العظيم قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 48].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ

(١) فوائد الفرائد (ص 44).

(٢) أخرجه الترمذي (ح 3070) (5/264) تحقيق أحمد شاكر. وقال: هذا حديث حسن غريب.

وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿ [المائدة: 72].

ولذا عدّه النبي ﷺ أعظم الذنوب في جوابه لابن مسعود رضي الله عنه
قال: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك» (١).

ومن شؤمه أنه محبط للأعمال الصالحة مهما عظمت، وقد حذر الله
تعالى منه نبيه ﷺ والأنبياء قبله، والخطاب لأمته؛ لأنه معصوم ﷺ ومبرأ من
الوقوع في ذلك كما قال البلاغيون: (الخطاب لمن يصلح له) قال تعالى:
﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ
الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿ [الزمر: 65 - 66].

قال بعض أهل العلم: «إذا كان ينهى عن الشرك من لا يمكن أن يباشره،
فكيف بمن عداهم».

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ [الأنعام: 88]،
والشرك الأكبر محبط للعمل بالكلية. والأصغر محبط للعمل الذي داخله
مع تفصيل في ذلك ليس هذا مكان بسطه، وقد قال تعالى في الحديث
القدسي: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملاً أشرك معي فيه
غيري تركته وشركه» (٢).

وحقيقة الشرك هي تسوية المخلوق بالخالق، أو الخالق بالمخلوق،

(١) أخرجه الترمذي (ح 3182)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي في سننه

(ح 3476) (2/ 290 - 291)، وأبو داود (ح 2310) (1/ 705).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (ح 1342).

ومن ذلك أن يأتي الإنسان بخلال وأعمال خصها الله تعالى بذاته العلية، وجعلها شعاراً للعبودية فيصرفها لأحد من المخلوقين كالسجود والذبح والنذر، والاستغاثة في الشدة، قال تعالى عن المشركين في النار ﴿ تَأْتِيهِمْ فِيهَا مِنَ النَّارِ كَغَيْظِ الْغَيْظِ يُصْرَقُونَ فِيهَا أَبَدًا وَلَا يُفَعَّلُونَ فِيهَا شَيْئًا سِوَى مَا تُنَادُوا بِهَا نَادُوا وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [النار: 97-98]، وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام: 1]. وهو قائم على أمرين:

1- تشبيه الخالق بالمخلوق، نحو شرك أهل التعطيل من اليهود والنصارى، وأهل وحدة الوجود، والقدرية.

2- تشبيه المخلوق بالخالق، وهو جعل بعض الخصائص الإلهية للمخلوق. كالكمال المطلق والتصرف المطلق، والخضوع والتأله والتوكل والاستعانة... إلخ.

من مظاهر التوحيد في الحج والتحذير من نواقضه ونواقصه :

وكما أسلفنا فإن جميع العبادات إنما شرعت لتحقيق التوحيد والتحذير من نواقضه ونواقصه، فإن هذا المقصد يظهر جلياً في الحج، في جميع كليات هذا النسك وجزئياته. ومن أبرز هذه المظاهر ما يلي:

1- إخلاص العمل لله تعالى والتحذير من الرياء والسمعة.

وهذا ظاهر في الآيات التي فرض الله تعالى فيهن الحج وأمر به، قال الله تعالى: ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ [البقرة: 196]، وقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ [آل عمران: 97]، فهو الله تعالى لا

لغيره.

وجاء تحقيق هذا المبدأ العظيم وتطبيقه من النبي ﷺ حينما قال عند إحرامه: «اللهم ليك حجاً لا رياء فيه ولا سمعة»^(١).

وهذا هو الواجب على كل حاج أن يجعل عمله كله خالصاً لله تعالى، وأن يتخلص من كل الإرادات الأخرى التي تقدح في نيته، وتحرمه ثواب عمله. وقد جاء في الأثر مرفوعاً إلى النبي ﷺ - ولا يصح -: «يأتي على الناس زمان يحج أغنياؤهم للنزهة، وأوساطهم للتجارة، وقرأؤهم للرياء والسمعة، وقرأؤهم للمسألة»^(٢).

فالحج ليس عادة موروثة، أو اندفاع لهوى جامح، أو سياحة دينية كما يسميه بعضهم يقصد منها قضاء جزء من وقته، للتعرف على هذه المشاهد، وزيارة هذه المشاعر، والفرجة على هذه الجموع المحتشدة. بل هو عبادة خالصة لله تعالى يستجيب فيها العبد لنداء ربه تعالى ويجدد فيها توحيده وتسليمه وانقياده لله رب العالمين متأسيًا في ذلك بمن أمر الله تعالى بالتأسي بهم من أنبياء الله ورسله، وأولهم الخليلان محمد ﷺ وأبوه إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

ونلاحظ من الآية المذكورة أنفاً معنى آخر، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَتَمُوا

(١) أخرجه النسائي (ح 3026) (5/270)، كما أخرجه الإمام أحمد في مسنده (ح 14793).

(٢) أخرجه الخطيب في تاريخ (11/597)، وأورده ابن الجوزي في العلل المتناهية (2/74)، وضعفه الألباني في الضعيفة (ح 1093).

الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ... ﴿فَالآيَةُ صَرِيحَةٌ فِي إِتْمَامِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ. بِمَعْنَى إِتْقَانِ أَعْمَالِ الْحَجِّ، وَالْإِتْيَانِ بِهَا كَامِلَةً مِنْ غَيْرِ نَقْصٍ عَلَى وَفْقِ مَا شَرَعَ اللَّهُ تَعَالَى وَرَسُولُهُ ﷺ.﴾

وهذه إشارة إلى الشرط الثاني من شرطي العبادة وهو أن يكون العمل صالحًا تامًا سالمًا من البدع والمحدثات ملتزمًا بهدي النبي ﷺ القائل «خذوا عني مناسككم»^(١) لا عن غيره ﷺ مهما كان ذلك الغير.

هذا التنبيه جاء بعد التنبيه على الشرط الأول: وهو الإخلاص لله تعالى كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَادِقًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: 110]، قال الحافظ ابن كثير: «وهذان ركنان العمل المتقبل، لا بد أن يكون خالصًا لله، صوابًا على شريعة رسول الله ﷺ»^(٢).

وقال الفضيل لما تلا قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ قال: «أخلصه وأصوبه، قالوا: يا أبا علي: ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إذا كان العمل خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص إذا كان لله عز وجل، والصواب إذا كان على السنة»^(٣).

(١) أخرجه بهذا اللفظ البيهقي في سننه (ح 9608)، وأصله في مسلم (ح 3137) بلفظ: «لتأخذوا مناسككم».

(٢) التفسير (5/205).

(٣) حلية الأولياء (8/95). وينظر: مجموع الفتاوى (3/124)، والبداية والنهاية (10/199).

وبهذا يتجلى في الحج التنبيه على شرطي العبادة وضرورة استحضارها في الحج، وفي كل عبادة حتى يكون عملاً متقبلاً مبروراً، بإذن الله تعالى. ولهذا كان من دعاء أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: «اللهم اجعل عملي كله صالحاً ولوجهك خالصاً، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً».

ونلاحظ من التنبيه الأول، تنبيه وتأکید على أصل عظیم من أصول الاستدلال في الإسلام وهو قصر التلقي عن المعصوم عليه السلام فيما يبلغ عن ربه تعالى. فقال: «خذوا عني» وما دخلت البدع وكثر الخلاف والانحراف إلا بعد أن وسع الناس مصادر تلقيهم، وخالفوا ما أمرهم الله تعالى به ورسوله عليه السلام، ففرقوا دينهم، وكانوا شيعاً، ومذاهب، وأحزاباً **﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾** [الروم: 32].

2- كما أن الحج في جميع أعماله قائم على تحقيق قاعدتي العبودية لله تعالى العظيمةين وهما:

أ- التعظيم.

ب- التسليم.

أما التعظيم: فظاهر جداً، ومظاهرة في الحج يصعب حصرها في مثل هذه العجالة. ولكن نشير إلى قوله تعالى: **﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾** [الحج: 32]، ذكرها الله تعالى في سياق الحديث عن الحج ومناسكه.

وتعظيم الشعائر من تعظيم من أمر بتعظيمها سبحانه وتعالى، ويدخل في ذلك تعظيم بيته تعالى.

وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُحِلُّوا شَعْبِيرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا ءَامِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَنْبَغُونَ فَضُلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا...﴾ [المائدة: 2].

ومن مظاهر التعظيم لله عز وجل اللهج بذكره وشكره، وجميع العبادات إنما شرعت لذكر الله تعالى، ويتجلى هذا في شعيرة الحج، فقد أمر الله تعالى بذكره عند إرادة الحج قال تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَكُم مِّن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ [الحج: 27-28].

كما أمر سبحانه بذكره في أثناء أداء المناسك: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُكُمْ وَإِن كُنْتُمْ مِّن قَبْلِهِ لَمِن الضَّالِّينَ﴾ [البقرة: 198].

وأمر به تعالى عند انتهاء المناسك ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: 200].

وبين ﷺ أنما شرعت هذه المناسك لإقامة ذكره عز وجل فقال ﷺ: «إنما جعل الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة، ورمي الجمار لإقامة

ذكر الله تعالى»(١).

وقد اجتمع في الحج شرف الزمان وشرف المكان. فيعظمان وفق ما شرع الله تعالى من غير زيادة ولا نقصان، لارتباط التعظيم بالتسليم، فلا نعظم إلا ما عظمه الله، ولا نعظم ما عظم الله إلا وفق ما شرع الله ورسوله. وبتعظيم الله عز وجل في القلب يسلم العبد من جميع صور الشرك.

وأما التسليم فهو ثمرة التعظيم، وهذا يقتضي الانقياد والاستسلام لكل أوامر الله تعالى فعلاً وتركاً، وعملاً وتصديقاً، وهو معنى الإسلام الحقيقي ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: 22]. وقال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 112]. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هَدَىٰ اللَّهُ هَدَىٰ هُوَ الْهُدَىٰ وَأَمْرًا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 71].

والحج دورة تدريبية في وجوب تسليم العبد لربه عز وجل في كل شيء من غير تردد ولا اعتراض، فيلتزم التسليم في زمان الحج ومكانه وشعائره وهيئات أدائها بالكمية والكيفية المحددة من غير زيادة ولا نقص. فلكل شعيرة زمان ومكان وكمية وكيفية لا يجوز للحاج تجاوزها ولا التقصير عنها، وإن لم تظهر له الحكمة من ذلك، فلا مجال للاستحسان ولا للرأي،

(١) أخرجه أبو داود (ح 1888)، والدارمي في المناسك (36)، وأحمد في المسند (64/6).

ولا للاعتراض باسم المصلحة أو غير ذلك من وسائل اعتراض أهل الأهواء.

وهذا التعظيم والتسليم في الحج يجب أن يكون ديدن المسلم ومنهج حياته كلها ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: 162، 163].

وكما حققه في الحج، فيجب أن يحققه في جميع شؤونه التعبدية والتعاملية في شؤونه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية.

فيسلم بذلك من عبادة الهوى والشيطان بطاعتها في معصية الله قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [يس: 60، 61]، وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجن: 23]. قال الحسن: «هو الذي لا يهوى شيئاً إلا ركه». وقال قتادة: «هو الذي كلما هوى شيئاً ركه، وكلما انتهى شيئاً أتاه، لا يحجزه عن ذلك ورع ولا تقوى»^(١).

ومعلوم أنهم لم يكونوا يسجدون للشيطان ولا للهوى، ولا يقدمون لهم القرابين، وإنما كانوا يطيعونهم في معصية الله، ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُؤْخَذَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَدِّدُواكُمْ وَإِنَّ

(١) الدر المنثور للسيوطي (7/ 426). وينظر: تفسير البغوي (4/ 126).

أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿ [الأنعام: 121].

وأصول المعاصي كلها قائمة على أصلين رئيسين:

١ - تعلق القلب بغير الله.

٢ - طاعة غير الله واتباعه في معصية الله، ولذلك فمن كان بالله أعرف كان له أخوف.

كما أن الحاج بتحقيقه للتسليم لله تعالى يسلم من كل صور الابتداع في الدين بالزيادة والنقصان، وقد حذر من ذلك النبي ﷺ أمته، كما حذره ربه تبارك وتعالى بقوله تعالى: ﴿ فَاسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ [هود: 112]، أي لا كما تهوى أو ترى أو تستحسن بعقلك، بل ﴿ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ يعني من ربك تبارك وتعالى. ولذا قال ﷺ: « وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار »^(١)، ويبيّن ﷺ أن كل تعبد وتقرب إلى الله تعالى على خلاف أمر النبي ﷺ فهو مردود على صاحبه: « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد »^(٢)، و« من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد »^(٣).

3- ومن مظاهر التوحيد في الحج التلبية (لبيك اللهم لبيك لبيك لا

(١) أخرجه الترمذي (ح 2676) (44/5) وقال: حسن صحيح، وأخرجه أبو داود

(ح 4607)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (ح 2549).

(٢) أخرجه البخاري (ح 2697)، ومسلم (ح 1718).

(٣) أخرجه مسلم (ح 1718).

شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك»^(١).

هكذا كانت تلبية النبي ﷺ، فهي إعلان وتجديد للتوحيد، ولذلك قال جابر رضي الله تعالى عنه في وصفه لحجة النبي ﷺ: «فأهل بالتوحيد»^(٢)، وإعلان البراءة من كل شريك لله تعالى (لا شريك لك).

فعلى الحاج أن يعي معنى هذه التلبية، وأن يلتزم بموجبها وهو تحقيق التوحيد الخالص لله تعالى. والبراءة من كل ما يقدر في هذا التوحيد من جميع صور الشرك الصغير والكبير، في الألفاظ والأعمال والمعتقدات. وأن يعود من الحج خالصاً مخلّصاً لله تعالى، ومُخَلِّصاً من كل أدران الذنوب والخطايا والشركيات التي قد يقارف شيئاً منها وهو لا يعلم. فعليه مراجعة سائر عباداته وأعماله ويخلصها من كل شائبة تحول دون قبولها.

4- ومن مظاهر التوحيد، إعلان الشهادة بالتوحيد في يوم عرفة، كما قال

ﷺ: «خير الدعاء دعاء عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير»^(٣).

فهي كلمة الإخلاص بجدد بها توحيده، كما جدده عند دخوله النسك بالإحرام بالتلبية، وإعلانه البراءة من كل صور الشرك. والاعتراف له سبحانه بالملك والتدبير والتصرف، وله المحامد كلها، والتسليم لقدرته تعالى المطلقة. فلا حول ولا قوة إلا بالله، فلا يلتفت إلى أحد سواه في قضاء

(١) أخرجه مسلم (ح 1218).

(٢) المصدر نفسه (ح 1218).

(٣) أخرجه الترمذي (ح 3585)، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (ح 2837).

حاجة، أو دفع مكروهه، أو جلب مصلحة، فالله وحده هو الذي على كل شيء قدير.

وهذا التوحيد الخالص يتكرر إعلانه وتجديده في جميع المشاعر عند المشعر الحرام، وبعد رمي الجمرات الوسطى والصغرى وعند الطواف والرقي على الصفا والمروة والسعي بينهما وغير ذلك.

5- كما أن من مظاهر التوحيد إعلان التكبير لله عز وجل (الله أكبر) يوم النحر (يوم الحج الأكبر) وعند رمي الجمرات. وهذا إعلان لتحقيق التعظيم المشار إليه آنفاً، فالله أكبر من كل شيء في الوجود مهما كان. وإذا تحقق هذا المعنى في قلب الحاج فهل يليق به أن يلتفت إلى غيره تعالى في استعانة أو استغاثة أو جلب مصلحة أو دفع مضرة؟!

وبهذه المعاني يسلم الحاج من الالتفات إلى من سوى الله تعالى من نبي مرسل أو ملك مقرب. لأن (الله أكبر!!) وقد أعلنها صريحة على رؤوس الأشهاد.

6- ومن مظاهر التوحيد البراءة من كل أعمال الجاهلية وخصالهم، بل وتعمد مخالفة المشركين في جميع شؤونهم فقال: «هدينا خير من هديهم»^(١).

وهذه البراءة ظاهرة في العديد من المواقف في الحج، إضافة إلى إعلانها في التلبية وكلمة الإخلاص المشار إليهما آنفاً، فهي تتجلى فيما يلي:

(١) صحيح مسلم (ح 1218).

أ- أن النبي ﷺ بدأ بتطهير بيت الله العتيق من جميع مظاهر الأصنام الحسية، وذلك بتحطيم الأصنام التي كانت للقبائل بسهمه ﷺ وإخراج ما كان منها داخل الكعبة، وتلاوة قوله تعالى: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: 81] (١).

ب - في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ﴾ [البقرة: 199] الذين كانوا على ملة إبراهيم عليه السلام. وهذا إعلان بمخالفة مشركي قريش الذين كانوا يقفون دون عرفة على حدود الحرم ويقولون: لا نفيض إلا من الحرم (٢)، فقال ﷺ وهم وقوف بعرفة: «كونوا على مشاعركم، فإنكم على إرث إبراهيم» (٣).

ج - وكذلك إعلان البراءة من خصال الجاهلية الاجتماعية والاقتصادية وغيرها التي أشار إليها النبي ﷺ في خطبة عرفة. ومنها: «ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث، كان مسترضاً في بني سعد، فقتلته هذيل، وربا الجاهلية موضوعة، وأول ربا أضع ربانا، ربا العباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله...» (٤)، فعمم ﷺ ثم خصص.

د - ومنها إفاضته من عرفة بعد مغيب الشمس، ومن مزدلفة قبل

(١) صحيح البخاري (ح 4287).

(٢) البخاري (ح 1665)، ومسلم (ح 1219).

(٣) سنن ابن ماجه (ح 3011) وصححه الألباني برقم (2438) من صحيح سنن ابن ماجه.

(٤) صحيح مسلم (ح 1218).

طلوعها، وكان المشركون على عكس ذلك، يفيضون قبل الغروب من عرفات، ومن مزدلفة بعد الشروق (١).

هـ - مراغمة المشركين بإظهار شعائر التوحيد في الأماكن التي أظهرها فيها الشرك حتى قال ابن القيم: «وهذه كانت عادته صلوات الله وسلامه عليه، أن يقيم شعار التوحيد في مواضع شعائر الكفر، كما أمر النبي ﷺ أن يبني مسجد الطائف موضع اللات والعزى» (٢).

بل قال ﷺ: «إن الشريعة قد استقرت - ولا سيما في المناسك - على قصد مخالفة المشركين» (٣).

و- وأكد ذلك كله بتحريم دخول المشركين والكفار مكة، فقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة: 28]، وتنفيذاً لهذا الأمر الإلهي بعث النبي ﷺ أبا بكر الصديق في العام التاسع ليؤذن في الناس: «ألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان» (٤).

7- ومن مظاهر التوحيد في الحج: النحر لله تعالى ، ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ

(١) السنن الكبرى للبيهقي (5 / 125)، والمستدرک (2 / 304) وقال: صحيح على شرط

الشيخين ووافقه الذهبي.

(٢) زاد المعاد (2 / 194، 195).

(٣) حاشية ابن القيم على سنن أبي داود (5 / 146).

(٤) صحيح البخاري (7 / 279).

وَأَنْحَرُوا [الكوثر: 2]، وذلك بذبح القرابين يوم النحر، وأيام التشريق لله تعالى وحده، وجعلها النبي ﷺ من أفضل أعمال يوم العيد بل سمي «يوم النحر» لكثرة ما ينحر فيه من القرابين لله تعالى، وقد أهدى ﷺ مائة بدنة^(١)، ونحر بيده الشريفة ثلاثاً وستين بدنة^(٢)، وأمر علياً رضي الله عنه أن يقسم بدنه على الفقراء والمساكين: لحومها وجلودها وجلالها^(٣).

وفي هذا تحذير للحاج من الذبح لغير الله تعالى على سبيل التقرب كالذبح لغير الله تعالى من الجن أو الأولياء أو غير ذلك من صور التقرب بسفك الدماء. فالذبح عبادة لا يكون إلا لله تعالى وصرفها لغير الله شرك. ولا يدخل في هذا الذبح من أجل أكل اللحم أو إكرام الضيف ونحو ذلك، فهذه لا تدخل في جانب التعبد والتقرب للمذبح له كما لا يخفى.

8- وكذلك الطواف بالبيت العتيق . وهو أول ابتداء أعماله ﷺ وختام أعماله حيث قال ﷺ: «لا ينفرن أحدكم حتى يكون آخر عهده بالبيت»^(٤).

وفيه من التحذير من قوادح التوحيد ونواقصه:

أ- أنه لا يطاف ببنية أو بقعة على وجه الأرض على سبيل التعبد إلا هذه البنية (الكعبة المشرفة) وكل طواف بقبر أو ضريح أو مشهد أو بقعة على

(١) صحيح البخاري (ح 1718).

(٢) سنن ابن ماجه (ح 3074).

(٣) صحيح مسلم (ح 1317)، والحلال: ما يجعل على ظهر الدابة لتصان به.

(٤) صحيح مسلم (2/963).

سبيل التعبد فهو مظهر من مظاهر الشرك المحرم.

ب - أنه لا يقبل ولا يستلم من الأحجار ونحوها على سبيل التعظيم والتعبد إلا الحجر الأسود كما كان يفعل ﷺ، ومع ذلك فيفعل ما فعله النبي ﷺ على سبيل الاقتداء والتأسي فقط كما قال عمر رضي الله تعالى عنه: «والله إني لأعلم أنك حجر أسود، لا تضر ولا تنفع، ولو لا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك»^(١).

ج - مع تعظيم النبي ﷺ لمقام إبراهيم فلم يزد عليه الصلاة والسلام على ما أمر الله تعالى به من اتخاذه مصلى. قال تعالى: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ [آل عمران: 97]، وقال تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: 125]. فصلى عنده النبي ﷺ وأكد التوحيد بقراءة سورتي الإخلاص في الركعتين ولم يقبله ولم يستلمه، قال قتادة: «﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ إنما أمروا بالصلاة عنده، ولم يؤمروا بمسحه...»^(٢).

فإذا كان هذا في حق مقام إبراهيم عليه السلام أبي الأنبياء فكيف بغيره من المقامات والأضرحة والقبور، وأكثرها كذب وافتراء. فدل على أن الحج مدرسة للتوحيد في كل جزئياته ومناسكه.

9- ومن مظاهر التحذير من قوادح التوحيد ونواقصه النهي عن الغلو واستثمار الحج في التحذير من أكبر أسباب الشرك وهو الغلو في حجم

(١) صحيح البخاري (462/3).

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (35/2).

حصى الجمار فقال ﷺ: «بمثل هذا فارموا وإياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو»^(١).

وهذا ما أرشد إليه تعالى في كتابه العزيز بقوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: 77]، وقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [النساء: 171].

والغلو هو مجاوزة الحد في التعبد والعمل والثناء قدحاً أو مدحاً. وأكبر وقوع الشرك هو من جهة الغلو في الصالحين، وهو أول شرك بني آدم، ولذلك جاء تحذير النبي ﷺ منه في هذا الموسم العظيم حماية للتوحيد وذلك من عدة أوجه:

أ- تحذير النبي ﷺ الصريح من ذلك.

ب- بيان أنه سبب هلاك الأمم السابقة.

ج- أنه ذريعة إلى الشرك كما أسلفنا، ولذلك فهو بعيد عن تعظيم الله ويؤدي إلى عبادة المغلو فيه حياً كان أو ميتاً.

ولذلك تدرج الشيطان باتباعه في الغلو في قبور الصالحين فسلك معهم ما يلي:

(١) أخرجه ابن جرير (3/35) بإسناد صحيح.

أ- يلقي إليهم أن البناء على قبورهم والعكوف عندها من محبة الصالحين أهل القبور، وإجلالهم.

ب- ثم ينتقل بهم إلى أن الدعاء عندها مستجاب.

ج- ثم ينقلهم إلى الدعاء بهم، والإقسام على الله بهم لما لهم من جاه عند الله.

د- ثم ينقلهم إلى دعائهم مباشرة، وسؤالهم الشفاعة وقضاء الحاجات وكشف الكربات.

هـ- ثم المرحلة الأخيرة بنقلهم إلى دعاء الناس إلى عبادتهم من دون الله، واتخاذ قبورهم أعيادًا ومناسك.

وعليه فإن من ثمرات الحج المقبول عند الله تعالى أن يرجع الحاج إلى أهله بعد أن منَّ الله عليه بأداء الحج، وقد جدد إيمانه وقوّاه، وحقق التوحيد ونقّاه، وتخلص من أوزار الذنوب وآثارها «فمن حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»^(١). فيرجع بعقيدة صافية صحيحة، يحمل حقيقة العبودية الخالصة التي ذاق طعمها وباشرها في تلك البقاع الطاهرة، ولذة الطاعة للواحد القهار، دون التفات إلى أحد سواه أو توسل بميت، أو اتخاذ الوسائط بينه وبين الله، وهذا هو الهدف الأسمى من أداء هذا النسك العظيم، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ [الحج: 26].

(١) البخاري (ح 1773)، ومسلم (ح 1349).

فعلى كل مسلم بعامة، وعلى كل حاج بخاصة أن يحمد الله على أن يسر له أداء هذه الفريضة، وعليه تجريد العمل لله سبحانه، وإخلاصه له جل وعلا، وعلى الإقلاع عما قد يكون وقع منه قبل حجه من صور الشرك صغيره وكبيره، وهو يعلم بذلك أو لا يعلم، ومن الدعاء المأثور الذي روي أن النبي ﷺ علمه أبا بكر رضي الله تعالى عنه: «اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك شيئاً وأنا أعلمه، وأستغفرك لما لا أعلمه»^(١). وكان من دعاء أبيه إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنِّي أَخْلَلْتُ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ﴿٣٦﴾﴾ [إبراهيم: 35-36]. قال إبراهيم التيمي رضي الله عنه: «ومن يأمن من البلاء بعد خليل الله إبراهيم!»^(٢) يعني من الوقوع في الشرك. ما دام إمام الموحدين ومحطم الأصنام بيده الشريفة يخشى من الشرك وعبادة الأصنام، فمن يأمن بعد إبراهيم.

تقبل الله من الجميع الصالحات، وجنبنا وإياهم سائر الذنوب والخطيئات، وجعل حجهم مبرورًا، وذنبهم مغفورًا، وسعيهم مشكورًا. وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) أخرجه الحكيم الترمذي كما في تفسير القرطبي (71/11) وفيه ليث بن أبي سليم وهو ضعيف.

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (228/13)، وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (46/5).